أثر العوامل العسكريّة في تحوّل مصر من الحكم الفاطمي إلى الحكم الأيوبي (362 – 567 هـ/ 972 – 1171م)

ياسر عبد الحسين داغر
جامعة بيروت العربية، لبنان

داغر, ي. ع. ا. (2024). أثر العوامل العسكريّة في تحوّل مصر من الحكم الفاطمي إلى الحكم الأيوبي (362 – 567 هـ/ 972 – 1171م). *Gloria: International Multidisciplinary Studies, 1*(1), 132-151.
https://gloria-leb.org/history.htm

المُلخّص

نظرًا لدور مصر المهم والرئيسي في السّياسة العربيّة والدّوليّة والأهميّة الاستراتيجيّة لموقع مصر في المنطقة ولكثرة الأحداث الّتي مرّت بها، قدّمنا هذا البحث الذي يحمل عنوان "أثر العوامل العسكريّة في تحوّل مصر من الحكم الفاطمي إلى الحكم الأيوبي في الفترة الممتدة (362 – 567 هـ/ 972 – 1171 م) والذي وفّر شرحًا مفصّلًا عن بعض التحوّلات والتغيّرات العسكريّة الّتي شهدتها مصر في المرحلة الانتقاليّة من الحكم الفاطمي إلى الحكم الأيوبي. كما بيّنا في هذا البحث حالة الانقسام الّتي أصابت المشرق الإسلامي بعد أن أصبح مُشتّتًا بين خلافتين متصارعتين على أرضه، وبخاصّة بلاد الشام الّتي تعتبر حلقة وصل بين مصر والعراق، ما سهّل دخول الفرنج وبداية الحروب الصليبيّة سنة (484 – 691 هـ/ 1091 – 1291 م). كما تناول هذا البحث التحوّل التاريخي المهم الّذي قام به صلاح الدين الأيوبي بعد قضائه على الخلافة الفاطميّة سنة (567 هـ/ 1171 م) مع إعادة توحيد مصر وبلاد الشام تحت راية الخلافة العبّاسيّة، وأعاد أيضًا القوّة العسكريّة لمواجهة الفرنج، ما أدّى إلى انتصاره في حطين واسترداد بيت المقدس عام (583 هـ/ 1187م).

الكلمات المفاتيح: العباسيّين، الفاطميّين، الأيوبيّين، الصليبيّين، السلاجقة، البيزنطيّين، بيت المقدس.

Abstract

Given the importance and main role of Egypt in Arab and international politics, the strategic importance of Egypt's location in the region, and the many events that it has experienced, we present this research entitled "The Impact of Military Factors on Egypt's Transition from Fatimid Rule to Ayyubid rule in the period extending (362 – 567 AH/ 972 – 1171 AD)". This study provides a detailed explanation of some of the military transformations and changes that Egypt witnessed during the transitional period from Fatimid Rule to Ayyubid Rule. We also explain in this research the state of division that struck the Islamic East after it became divided between two conflicting caliphates on its land, especially the Levant, which is considered a link between Egypt and Iraq, the fact that facilitated the entry of the Franks and the beginning of the Crusades during the period (484 – 691 AH/ 1091 – 1291 AD). This research also examines the important historical transformation carried out by Saladin Al-Ayyubi after eliminating the Fatimid State in the year (567 AH / 1171 AD) and reunifying Egypt and the Levant under the banner of the Abbasid Caliphate, considering

that he also restored military power to confront the Franks, which led to his victory in Hattin and the recovery of Jerusalem in the year (583AH/ 1187AD).

Keywords: Abbasids, Fatimids, Ayyubids, Crusaders, Seljuks, Byzantines, Jerusalem.

مقدّمة

إن السّياسة الّتي اتّبعها الخلفاء الفاطميّون هي سياسة قائمة على التعصّب المذهبي في محاربة أهل السنّة في مصر وبلاد الشام، والّتي كانت سببًا في نشوب حروب أهليّة وصراعات دينيّة ومذهبيّة. كذلك الأمر لقد ساءت علاقة الفاطميّين مع الصليبيّين والعبّاسيّين والبيزنطيّين والسلاجقة، وكانت أيضًا سببًا في نشوب حروب طويلة الأمد وتكبّد الخسائر الفادحة، بالإضافة إلى الخطأ التاريخي بحق الخلافة الفاطميّة الشيعيّة حين استنجد الخليفة العاضد بآل زنكي السنيّين في الشام حيث لبّوا نداء الخليفة الفاطمي وأرسلوا الحملات المتتالية إلى مصر لنجدة الخليفة الشيعي، جميعها أدت نتائج غير محمودة:

- إلى زوال الخلافة الفاطميّة الشيعيّة.
- قيام دويلات وإمارات في العالم الإسلامي.

وما بين الصراعات الداخليّة والصراعات الخارجيّة برز الأيوبيّون على مسرح الأحداث السّياسيّة والعسكريّة كقوّة جديدة بعد حقبة حاسمة في تاريخ الخلافة الفاطميّة، فكانت نهاية الخلافة على يد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي حين قضى عليها نهائيًّا في شمال أفريقيا ومصر وبلاد الشام سنة (567 هـ/ 1171 م)، وأسّس مكانها الدولة الأيوبيّة، وكان له ما أراد ووحّد بلاد المسلمين وتابع الجهاد ضدّ الفرنج فعظم شأنه، ولكن قوّة الأيوبيّون وعظمتهم اعتبرها كثير من المؤرّخين بأنها انتهت بعد وفاة مؤسّسها سنة (589 هـ/ 1193 م). ومن هذا المنطلق سوف نستعرض في هذا البحث العوامل الداخليّة والخارجيّة العسكريّة وأثرها في تحوّل مصر من الحكم الفاطمي إلى الحكم الأيوبي، ونهاية الخلافة الفاطمية الشيعيّة بعد انهيار جيشها وحلّ مكانها الدّولة الأيوبيّة السنيّة لتتوحّد الدول السنيّة تحت رايته ولتبدأ مصر وبلاد الشام مرحلة جديدة في تاريخ العالم الإسلامي.

المبحث الأوّل - العوامل الدّاخليّة والخارجيّة الّتي سرّعت في إضعاف الحكم الفاطمي وإنهائه.

أوّلًا – العوامل الدّاخليّة:

1– التنازع بين القبائل والقوات المتواجدة داخل الخلافة الفاطميّة.

لمّا اتّخذ الفاطميّون مصر مقرًّا لدولتهم، ساروا على طريقة العبّاسيّين في الاعتماد على غير أبناء جنسهم، فصار جيشهم في عهد الخليفة المعز لدين الله (341 – 365 هـ/ 953 – 975 م) يتألّف من قبائل كتامة وزويلة وبعض طوائف البربر من صقلية (ابن تغري بردى، 1992م، ج4، ص90). وطبقًا للمعلومات الأخرى عن القوات العاملة لدى الخليفة المعز لدين الله في ذلك الوقت أنها كانت تتألّف من مئة ألف مُحارب (100000) من الكتامين (أبو شامة، 2002م، ج3، ص356)، وأربعين ألفًا (40000) من البربر وقبائل أخرى (المقريزي، 1996م، ج1، ص214)، وستين ألفًا (60000) من الزنوج (سيّد، 1992م، ص95)، أمّا عدد السلاف فهو غير معروف ولكن هناك حقيقة هامّة تُشير إلى دورهم الكبير ولكن في عهد الخليفة العزيز بالله (365 – 386 هـ/ 975 – 996 م) فقد تمّ فقدان الثقة بالسلافيّين سواء أكانوا من سكّان شواطئ البلقان أم من غيرها، وتمّ استبدالهم بفرق من القبائل المتواجدة: أتراك وخفتاجيّين وديلميّين وأكراد من السكّان المحاربين من شمال العراق (ل. أ. سيمينوفا، 2001م، ص198). وقد أدّت هذه السّياسة إلى قيام التنافس بين المغاربة والأتراك وظلّ الحال كذلك إلى أن ولّي الحاكم بأمر الله الخلافة (386 – 411 هـ/ 996 – 1021 م)، فقرّب إليه الكتامين في بداية عهده ثمّ انحرف عنهم واعتمد في جيشه على الجنود المرتزقة من الأتراك والسودانيّين (جلال، 1963م، ص

278)، وحذا حذوه ابنه الظاهر (411 – 427 هـ/ 1021 – 1036 م) في الاعتماد على الأتراك فضعف بذلك شأن الكتامين ألى أن تلاشى أمرهم في عهد الخليفة الفاطميّ المستنصر بالله (427 – 487 هـ/ 1036 – 1094 م) الّذي استكثر من الأتراك في حين استكثرت أمّه رصد من العبيد حتّى بلغ عددهم خمسين ألفًا (50000) (ل. أ. سيمينوفا، 2001م، ص199).

في بداية حكم الخليفة المستنصر بالله، تغلّب الوضع المتدهور على الجيش بالاعتماد على الزنوج وهذا يوضح لنا - فيما يبدو- وضع أم الخليفة السيّدة رصد الّتي كانت هي الحاكم الحقيقي في تلك السنوات وهي الّتي كانت في السّابق زنجيّة، وسبب ذلك كانت ترعى وتهتمّ بأبناء جلدتها من الزنوج (عبد الكريم أحمد، 1993م، ص187). وعلى ما يبدو ظهر أيام هذا الخليفة التنافس والتشابك بين هاتين الطائفتين التركية والزنجية ممّا كان له أسوأ الأثر في حالة مصر الداخليّة.

قامت الخلافة الفاطميّة على أكتاف المغاربة في بلاد المغرب ثمّ في مصر وكانوا يؤمنون بعقائد المذهب الإسماعيلي الشّيعي، وقد اعتمد الفاطميّون على هؤلاء المغاربة وخاصّة الكتامين منهم. وهم عصب الخلافة الفاطميّة وقوّتها في مصر، ومن زعمائهم: أبو الحسن بن عمار الّذي ولّاه الحاكم بأمر الله الوساطة وخلع عليه عام (386 هـ/ 996 م) ولقّب بأمين الدّولة (سيّد، 1992م، ص105).

استغلّ ابن عمّار سلطته في تحقيق مصالح وأطماع الكتامين، فخصّهم ببعض الوظائف وأنفق عليهم الأموال وأعطاهم الخيول، واعتمد على أحداث المغاربة ليقضي بعد ذلك على نفوذ التواجد التركي الّذي استحدثه الخليفة العزيز بالله. كانت نتيجة هذه السّياسة ازدياد جرأة المغاربة الكتامين، فعاثوا فسادًا في طرقات القاهرة ونهبوا المتاجر واشتبكوا مع الأتراك في بعض المعارك وتطوّرت هذه المعارك إلى قتال بين الفريقين، وانتهى الأمر بهزيمة المغاربة (الخربوطلي، 1968م، ص349)، وقد ضعُف نفوذ الكتامين منذ ذلك حتّى صاروا من جملة الرعيّة في عهد المستنصر بالله الفاطمي بعد أن كانوا من أكابر رجال الدّولة (ابن ميسر، 1980م، ص55).

أمّا السودانيّون فبدأ ظهورهم في مصر منذ أيام كافور الإخشيدي (الإسكندري، 1991م، ص214)، وكانوا يُجلبون من الجنوب كجنود مرتزقة، ولم يعمل كلّ من المعز والعزيز بالله إلى استخدامهم في الجيش، وإنّما استعان بهم الخليفة الحاكم ضدّ المصريّين السنّة، فهاجموا أرجاء تلك المدينة واقتحموا بيوتها وحمّاماتها ونهبوا أسواقها (ابن تغري بردى، 1992م، ج4، ص181 – 182). ثمّ ازداد خطرهم على أمن الدّولة في عهد الخليفة الظاهر، فثاروا بمدينة تنيس سنة (415 هـ/ 1024 م) مُطالبين بأرزاقهم وعاثوا في البلاد فسادًا وسلبوا ما في خزائنها من المال، فبعث إليهم الوزير الفاطمي نجيب الدولة علي بن أحمد الجرجرائي، فقبض على الجناة وأخضع ثورتهم (المقريزي، 1991م، ج2، ص181).

أمّا الأتراك ظهر أمرهم في عهد الخليفة العزيز بالله بعد أن استكثر منهم وقرّبهم إليه وأصبحوا منذ ذلك الوقت عنصرًا هامًّا في الجيش الفاطمي، وقد ثار الجند الأتراك في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله حين أبطل ابن عمّار عطاياهم وبالغ في مُعاداة المغاربة، كما حاصر هؤلاء الجند قصر الخليفة حين بلغهم أن محمد بن إسماعيل الدرزي لجأ إليه، وطالبوه بتسليمه فاضطرّ الخليفة الحاكم أن يخبرهم هو بنفسه أنّه ليس موجودًا في قصره، بعد أن سهّل له الفرار إلى بلاد الشّام (سرور، 1963م، ص102). من جانب آخر واجه الأتراك منافسة شديدة من الجند السودان في عهد الخليفة المستنصر بالله، فنشبت بين الفريقين معارك عنيفة (سيّد، 1992م، ص139)، وقف منها الجند المغاربة إلى جانب الجند الأتراك، فأوقعوا الهزيمة بالجند السودان رغم المُساعدات الّتي قدّمتها لهم السيّدة رصد أم الخليفة المستنصر بالله (العبادي، 1971م، ص110)، كما أن الجند السودان هم أنفسهم قاموا بمؤامرة فيما بعد بهدف القضاء على صلاح الدين الأيوبي حين استلم الوزارة في مصر، ولكنّه هزمهم أشدّ الهزيمة ولاحق فلولهم حتّى الصعيد (جلال طه، 1967م، ص315). ويبدو أنهم بعد هزيمتهم على أيدي المغاربة والأتراك استقرّ معظمهم في الصعيد حيث عاثوا في البلاد فسادًا وأخذوا يشنّون هجمات مُتتالية عن طريق البرّ والنّهر على القاهرة رغبة منهم في الاستيلاء عليها وطرد الجند الأتراك. وكان يتولّى قيادة هؤلاء الأتراك في أوائل عهد الخليفة المستنصر بالله ناصر الدين الحسين بن حمدان التغلبي (زكي،

1966م، ص342)، وقد ازداد نفوذهم في القاهرة بعد طرد الجند السودان إلى الصعيد. وسرعان ما استفحل أمرهم وأخذوا يُطالبون الخليفة بزيادة مُخصّصاتهم، فزاد في مِنَحِهم حتّى بلغت أربعمائة ألف دينار في كل شهر بعد أن كانت ثمانية وعشرون ألف دينار (ابن الصيرفي، 1996م، ص415). ويبدو أن الأتراك لم يقتنعوا حينئذٍ بالأموال الّتي قرّرها لهم الخليفة المستنصر، بل ألحّوا في زيادة مُخصّصاتهم، ولمّا أظهر عجزه عن تلبية طلباتهم لقلّة إرادات الدّولة، ألزموه ببيع ذخائره، فأخرجها إليهم وقسّموها على أنفسهم (ابن ميسر، 1980م، ص17).

واصل ناصر الدولة بن حمدان سياسته في مُحاربة العبيد، فسار على رأس جماعة من الأتراك إلى الصعيد لتحقيق هذه الغاية واشتبك معهم في قتال عنيف قضى فيه على كثير منهم (المقريزي، 1991م، ج1، ص79)، ولم يكد يفرغ ناصر الدولة بن حمدان من التغلّب على الجند السودان حتّى كشف القناع عن غرضه الأصلي، فجاهر بالإساءة للخليفة الفاطمي المستنصر بالله، واستبدّ بالأمور دون الأتراك، كما استأثر بأموالهم فسعوا إلى الخلاص منه، ورفعوا شكواهم من تصرفاته إلى وزير الخليفة المستنصر بالله، ولمّا تحقّق هذا الوزير من صدق قولهم، لامهم على انضمامهم إليه أوّل الأمر، ثمّ حسن لهم الخروج على ناصر الدولة بن حمدان ومناهضته (الأعظمي، 1960م، ص49)، كما أنّهم توجّهوا إلى الخليفة وأظهروا مدى استيائهم من ناصر الدّولة، وطلبوا منه أن يخرجه من الديار المصريّة، فبعث إليه الخليفة يأمره بالرحيل عن مصر ويهدّده بإلحاق الأذى إن امتنع عن الخروج منها، فسار ناصر الدولة إلى الجيزة (أبو الفداء، 1967م، ص352)، والجدير بالذكر أنّ أحد الأمراء الأتراك لاعتقاده أنّهما كانا السبب في حمل الأتراك على مناهضته واضطهاد الخليفة المستنصر له، ولكنّه التجأ إلى قصر الخلافة واستجار بالخليفة وأخذ يحرّضه على قتال ناصر الدولة، وبالفعل خرج الخليفة الفاطمي على رأس قوّة من الجيش وألحقوا الهزيمة بناصر الدولة، وفرّ مع قليل من أصحابه إلى البحيرة حيث انضمّ إليه فريق من الأعراب (ابن تغري بردى، 1992م، ج4، ص310)، فبينما كان الجند السودان يثيرون الاضطرابات في الوجه القبلي لمصر، كان بعض فرسان ناصر الدّولة من قبائل الأعراب يغيرون على الوجه البحري لمصر وينهبون البلاد ويحطّمون الجسور والقنوات ممّا ترتّب عليه انقطاع المؤن والإمدادات عن القاهرة والفسطاط (البراوي، 1988م، ص95). وبعدها قام ناصر الدّولة في سنة (462 هـ/ 1069 م) بإرسال رسول إلى ألب أرسلان سلطان السلاجقة يسأله أن يُرسل إليه عسكرًا ليُقيم الدعوة العبّاسيّة على أن تؤول إليه السّيادة على مصر (الحنفي، 1978م، ص321)، وأقام الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسي في الإسكندريّة ودمياط (العبادي، 1971م، ص89). ولمّا بلغ الخليفة الفاطمي المستنصر هذا الخبر جهّز جندًا من الأتراك لمحاربته في البحيرة، ودارت بين الفريقين عدّة معارك انتهى الأمر فيها بهزيمة أتباع ناصر الدّولة بن حمدان وغنم منهم غنائم كثيرة (ابن تغري بردى، 1992م، ج4، ص132)، وعلى الرّغم من الهزيمة ظلّ ناصر الدّولة يعمل على إضعاف شأن الخليفة الفاطمي فحذف اسم الخليفة المستنصر بالله من الخطبة وأرسل يطلب منه الأموال (المقريزي، 1996م، ج1، ص337). كانت حالة المستنصر حين وفد إليه رسول ناصر الدّولة تُنبئ بزوال الخلافة عنه، فلمّا علم بذلك ناصر الدّولة أظهر ميله إلى مذهب أهل السُنّة واضطرّ كثير من أقارب الخليفة الفاطمي وأولاده إلى النزوح إلى المغرب والعراق نتيجة ما أصاب مصر أثناء "الشدّة العظمى المستنصريّة" من مجاعات وسوء أحوال البلاد الاقتصاديّة (سيّد، 1992م، ص145).

خشيَ الأتراك على أنفسهم من جرّاء استبداد ناصر الدّولة بالأمور في القاهرة وإقامته الدّعوة العبّاسيّة وعمله على إزالة الخلافة الفاطميّة، وبالمقابل اجتمع الخليفة الفاطمي بأعوانه وأعلمهم إن أتمّ ناصر الدّولة تحقيق ما يُريد، سيقضي عليهم ولم يسلم أحد منهم (ابن كثير، 1981م، ج12، ص340)، ثمّ اتّفقوا عليه بسيوفهم ولم يكتفوا بذلك، بل تتبّعوا كل أفراد أسرة بني حمدان بمصر وتخلّصوا منهم (ابن ميسر، 1980م، ص22). على ما يبدو لم يتحقّق النصر على ناصر الدّولة وإلحاق الهزيمة به وبأتباعه إلّا بعد أن تمّ توحيد الجهود العسكريّة بين الجند الأتراك والخليفة المستنصر بالله.

فلم تنته الفوضى والاضطرابات الّتي انتابت مصر بقتل ناصر الدولة، سرعان ما ازداد نفوذ الأتراك حيث استبدّوا بالأمور حتّى ضاق بهم الخليفة ذرعًا واضطرّ سنة (466 هـ/ 1073 م) أن يبعث إلى والي عكا بدر الجمالي يطلب منه القدوم إلى مصر ليتولّى تدبير شؤون دولته وإصلاح ما فسُد من الأمور في البلاد (طقوش، 2014م، ص126)، فاشترط أن يحضر معه من يختاره من عساكر بلاد الشام ليستعيض بهم الجند الأتراك والمغاربة والسودانيّين الموجودين في مصر، فوافق الخليفة المستنصر بالله على طلبه، ولمّا أتمّ بدر الجمالي إعداد عدّته للرحيل إلى مصر، أبحر في فصل الشتاء (أبو شامة، 2002م، ص321). نزل مع جنده في دمياط، ثمّ تابع سيره حتّى وصل إلى مشارف القاهرة، وهناك بعث إلى الخليفة الفاطمي يقول: "إنّه لن يدخل القاهرة إلّا بعد قتل قادة الأتراك المسبّبين للفوضى والأحداث الأمنيّة داخل البلاد المصريّة (سرور، 1963م، ص108 – 109)، فوافق الخليفة على طلبه، ولمّا دخل بدر الجمالي مدينة القاهرة على رأس جنده الأرمن – من أبناء جلدته – استقبله جند الأتراك استقبالًا وديًّا لأنّهم لا يعلمون شيئًا عن نواياه نحوهم،ولكنّهم ما لبث أن دبّر مؤامرة للتخلّص من قادتهم (المقريزي، 1991م، ج2، ص30)، فعيّن لكل واحد من ضبّاطه الأرمن أحد القادة الأتراك ليقتله خلال الليل، ولم يكد يُشرق صباح اليوم التالي حتّى تقدّم الضبّاط حاملين رؤوس قادة الأتراك (ابن الصيرفي، 1996م، ص51). وبذلك تمهّدت لبدر الجمالي الأمور وأحاط نفسه بجند من الأرمن. بعدها سار إلى الصعيد حيث كان الجند السودان وجماعة من الأعراب فانقضّ عليهم فجأة وأفنى أكثرهم (سرور، 1963م، ص115)، وغنم منهم كثيرًا من الغنائم وأعاد بعضًا من النفوذ السّياسي للخليفة على معظم البلاد المصريّة. وفي الوقت نفسه ظلّ الخليفة المستنصر بالله في عهد وزرائه كالمحجور عليه إلى أن توفي في سنة (487 هـ/ 1094 م) (ابن ميسر، 1980م، ص25). وهذا لا يعني أنّ الخليفة الفاطمي استعاد نفوذه وقوّته وهيبته بعد أن قضى بدر الجمالي على معظم الأحداث والفوضى في مصر والقاهرة، بل على العكس من ذلك قويت شوكة الّذين استنجد بهم الخليفة، وأصبح هو أكثر ضعفًا من ذي قبل لأنّهم استأثروا بالحكم وغدا الخليفة محجورًا في قصره، ويدير الوزراء الفاطميّون أمور البلاد بعد أن أصبحت بأيديهم كل إدارات الدّولة وسلطاتها.

2– التسابق على اعتلاء عرش الخلافة الفاطميّة.

بعد وفاة الخليفة العزيز بالله في سنة (386 هـ/ 996 م)، تولّى الخلافة سبعة من الفاطميّين كان بينهم وقت اعتلاء العرش ثلاثة مراهقين وخمسة أطفال كان أوّلهم الحاكم بأمر الله الّذي ظنّ البربر وكتامة عند تولّيه أن الفرصة قد سنحت لهم لتطهير الجيش من أبناء الشرق، وشرطوا عليه أن يولي الحسن بن عمار المغربي الوساطة (المقريزي، 1991م، ج2، ص36 – 37). ممّا مكّن المغاربة من استعادة مكانتهم في الدّولة بعد أن أضعفهم الوزير ابن كلس، وبقوا مؤقّتًا محل الأتراك في إدارة الأعمال، حتّى اضطرّت جماعة من الأتراك إلى الهرب من مصر خوفًا من ابن عمار والّذي لقّب بـ "أمين الدّولة" فأصبح بذلك أول من لقّب في الخلافة الفاطميّة (ابن الأثير، 1966م، ج9، ص118). ولم يلبث الأتراك والمشارقة أن تحالفوا مع برجوان الّذي كفل الحاكم بأمر الله بعد وفاة الخليفة العزيز بالله. وثارت فتنة بينهم وبين المغاربة في سنة (378 هـ/ 997 م) انتهت بإقصاء ابن عمّار وإحلال برجوان محلّه، فاستقلّ بالأمور مع كاتبه فهد بن إبراهيم النصراني ولم يدع الخليفة يتصرّف بشيء إلّا برأيه (ابن خلكان، 1978م، ج1، ص271).

فضاق الخليفة الحاكم بأمر الله به ذرعًا وقرّر التخلّص منه لينفرد بأمر الخلافة، فأوعز إلى زيدان الصقلي، صاحب المظلّة، أن يقتله في القاهرة وذلك في سنة (390 هـ/ 999 م)، كما قُتل العديد في هذه الأحداث كذلك ابن عمّار وتولّى تدبير الدّولة الحسين بن جوهر القائد (ابن الأثير، 1966م، ج9، ص122).

وقد أعقب ذلك، اضطرابات بين طوائف الجُنُد، فقد اعتبر الأتراك ما حدث ضربة لهم من بربر كتامة، ممّا اضطرّ الخليفة على الخروج إلى باب قصره ومخاطبة المتظاهرين، ووجّه حديثه إلى

الكتامين ووصفهم بأنّهم الأحب إلى والده العزيز وطلب إلى الجميع الولاء والطاعة، كما أمر أبا منصور بن سورين، كاتب الإنشاء، بكتابة سجلّ يُبرّر فيه قتله لبرجوان (الشيّال، 1965م، ص131 و135).

ثانيًا – العوامل الخارجيّة:

1 – الأوضاع السّياسيّة والعسكريّة في بلاد الشّام قُبيل الحملة الصّليبيّة الأولى (490 هـ/ 1096 م).

أ – علاقة الفاطميّين بالسلاجقة في بلاد الشام:

تميّزت بلاد الشّام بموقعها الجغرافي الاستراتيجي[1]، ممّا جعلها محط أنظارٍ للشعوب المُهاجرة من آسيا الصغرى منذ القرن الخامس الهجري / النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي. ومن الشعوب الّتي سكنت هذه المنطقة هُم السلاجقة[2] وبعدها تقرّب زعيمهم طغرل بك هو وجماعته من الخليفة العباسي وعملوا في خدمته. وبوفاة طغرل بك سنة (455 هـ/ 1063 م) خلفه ابن أخيه ألب أرسلان، كان شابًّا طموحًا، تقرّب من أميري مكّة والمدينة المنوّرة، ودعاهما للولاء للعبّاسيّين والتخلّي عن الدعوة للفاطميّين (المقريزي، 1996م، ج2، ص304).

بعد ذلك وجّه ألب أرسلان نظره شطر بلاد الشّام، وكانت جلّ مدنها تُدين بالولاء للخلافة الفاطميّة، غير أن أمير حلب محمود بن نصر المرداسي، بادر بالولاء للسلاجقة وأقام الخطبة للعبّاسيّين، ولكنّه سرعان ما تخلّى عنها فيما بعد، إلّا أنّ ألب أرسلان توجّه صوب حلب لمحاصرته فاستسلم له. ومنذ ذلك الحين أصبحت حلب ومُدُن شمال الشّام تابعة للسلاجقة.

إنّ مشروع توسّع ألب أرسلان على حساب منطقة الشّام وما جاورها من مصر، لم تكن معالمه واضحة، خاصّة وأنّ بعض مُدُن الشّام لا تزال تُدين بالولاء للخلافة الفاطميّة، كما أنّ مصر أصبحت بدون أهميّة، بعد أن ضربتها المجاعة في عهد الخليفة المستنصر والّتي استمرّت سبع سنين، وكانت آثارها وخيمة على أهالي مصر، وقد عُرفت في التّاريخ باسم "الشدّة العظمى المستنصريّة" (الغامدي، 1982م، ص115).

ومن خلال توسّع ألب أرسلان في بلاد الشام أصبحت بيت المقدس ضمن الأملاك السلجوقيّة، وكان ذلك سنة (464 هـ/ 1071 م)، ولمّا مات تولّى من بعده ابنه محمد ملكشاه[3]. وفي سنة (469 هـ/ 1071

---

[1] - بلاد الشام: يحدّها شرقًا نهر الفرات وغربًا البحر الأبيض المتوسط، وجنوبًا البحر الأحمر وعريش مصر، ومن الشّمال جبال طوروس المطلّة على آسيا الصغرى (منطقة الأناضول) عُرفت في العصر الإسلامي بالثغور الشاميّة، وقد أطلق عليها =سكان بلاد الرافدين قديمًا اسم أمورو، وهي مارتو بالسومريّة وتعني الجهة الغربيّة، كما أن اليونانيّين استخدموا مصطلح سورية واستخدمها الترك باسم سورستان، وجاءت في التوراة باسم أرام، والّتي تعني بلاد الشّام أو الشّام. وهناك من يجعله شامًا واحدًا، بينما هناك من يجعله شامات، حيث بلاد فلسطين والأرض المقدّسة إلى الأردن شامًا، ويقولون: الشّام الأعلى، كما أن دمشق وبلادها من الأردن إلى الجبال المعروفة بالطّوال شامًا. وقد اختلف في تسميتها، فهناك من يقول: إنّ قومًا من كنعان خرجوا عند التفريق فتشاءموا إليها، أي أخذوا ذات الشّمال، بينما هناك من يرى أن تسميتها تعود إلى سام بن نوح عليه السلام. به القبلة الأولى والأرض المقدّسة والثغور الجليلة، كما بها أمّهات المُدُن مثل بيت المقدس وحلب ودمشق وإنطاكية وطرابلس. الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله، (ت626 هـ/ 1229 م)، (1979م)، معجم البلدان في معرفة المُدُن والقُرى والخراب والعمار، دار الثقافة، بيروت، ج3، ص311 – 312.

[2] - السلاجقة: ينتسب السلاجقة إلى سلجوق بن دقاق ويُقال له: تقاق أو يقاق، كان ذا رأي ومشورة، له من الأولاد أرسلان وميكائيل وموسى، وأصلهم من الأتراك. يتوطّنون فيما وراء النهر في موضع يُسمّى بنور بخارا. لعب السلاجقة دورًا رياديًّا في المرحلة الأولى، إلّا أنّهم انقسموا إلى خمسة بيوت وهي: بيت طغرل بك وهي دولة السلاجقة الكبرى، وسلاجقة كرمان وهم عشيرة قاروت بك بن داود، وسلاجقة عراق العجم وكردستان، وسلاجقة الروم بآسيا الصغرى، وسلاجقة الشّام وهي بيت تُتش بن ألب أرسلان. الأصفهاني، عماد الدين أبو عبد الله محمد الفتح بن علي، (ت597 هـ/ 1201م)، (1990م)، تاريخ آل سلجوق، ط2، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص5.

[3] - محمد ملكشاه: هو أبو الفتح ملكشاه بن ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق، المُلقّب بـ "جلال الدلو". توسّعت السلطنة في عهده وامتدّت من بلاد فارس شرقًا إلى حدود مصر غربًا، توفي سنة (485 هـ/ 1092 م)، وبوفاته دبّ الضعف في الدّولة السلجوقيّة. ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري، (ت630 هـ/

م)، ثار المقدسيّون على الحكم الفاطمي، فقام السلطان السلجوقي بإرسال جيش بقيادة أتسز ابن أوق الخوارزمي، وكانت بها حامية فاطميّة ففتحها عنوة ونهبها، وقتل كثيرًا من أهلها، بعدها أصبحت بيت المقدس من أعمال أرتق بن أكسب التركماني[1] الّذي استولى عليها بحدّ السّيف وأسّس بها ملكًا لآل أرتق سنة (469هـ/ 1076م) (عارف، 1991م، ص65). وفي سنة (485 هـ/ 1092 م) توفي السلطان ملكشاه، فدبّ الضعف في دولة السلاجقة، وخاصّة في الشّام (ابن الأثير، 1966م، ج8، ص481)، حيث بدأ الصراع بين بركياروق وإخوته، إضافة إلى عمّه تاج الدّولة تُتش، الّذي أصبح ضمن دائرة الخلاف، وطالب هو الآخر بالعرش، فانضمّ كلّ من أوق سنقر قسيم وياغي سيّان، وبهذا ازداد طمعه، فأعلن نفسه سلطانًا سنة (486 هـ/ 1093م) (ابن القلانسي، 1983م، ص122)، وانتصر تاج الدّولة تُتش على بركياروق عند قرية سرخاب فيما وراء النهر، وبذلك لقي التأييد من الخليفة العبّاسي المستظهر بالله (487 – 512 هـ/ 1094 – 1118 م) (ابن الأثير، 1966م، ج8، ص495)، ولكن سرعان ما عاد الصراع من جديد بين تاج الدولة تُتش وابن أخيه بركياروق سنة (488هـ/ 1095م) أدّت إلى هزيمة تاج الدولة ومقتله (ابن العديم، 1996م، ج2، ص119).

ب – انقسام بلاد الشّام:

بعد مقتل تاج الدّولة تُتش، أصبحت بلاد الشّام قاب قوسين أو أدنى من الانقسام على نفسها، إذ أنّ ولديه دقاق ورضوان وقادته سيتحكّمون في مصير المنطقة (ابن القلانسي، 1983م، ص130)، حيث أصبحت مدينة حلب وقلعتها تحت سلطة رضوان والأتابك[2] جناح الدولة حسين (ابن الأثير، 1966م، ج8، ص502)، في حين أصبحت دمشق تحت راية أخيه دقاق بمرافقة الأمير ساوتكين نائب تاج الدّولة تُتش (ابن العديم، 1996م، ج2، ص127).

ومن خلال ما جرى من تنافس بين الأخوين، نرى بأنّ التمزّق السّياسي والعسكري قد ضرب بلاد الشام، نتيجة الطمع في عرش السلطنة، وعليه أصبحت هذه المنطقة تُعاني الفرقة والتشتّت نتيجة هذا الصراع الدّاخلي، وكلّ ذلك في مصلحة الفرنج (ابن القلانسي، 1983م، ص132) .

وممّا زاد الأمر سوءًا، استمرار الخلاف بين الأخوين ومن سار في ركبهما، حينما كانت جيوش الإفرنج تتقدّم باتّجاه الشّام، وأحرزت نصرًا مؤزّرًا على السلاجقة في آسيا الصغرى (490 هـ/ 1096 م) (الغامدي، 1982م، ص283).

ولمّا بلغت الأخبار إلى بلاد الشّام، عن زحف هذه الجيوش في اتّجاه الشّام، لم تسع القوى السلجوقيّة إلى توحيد صفوفها واتّخاذ التدابير والاحتياطات، بل تفرّقت لتبقى أنطاكية بوابة الشّام من جهة الشّمال الغربي، تُعاني الحصار المضروب عليها طيلة فترة زمنيّة طويلة (ابن العديم، 1996م، ج2، ص129 – 130).

ج – تنافس الإمارات العربيّة في بلاد الشّام:

قامت بمنطقة الشّام نتيجة الصراعات والانقسامات داخل الأسرة السلجوقيّة إمارات عربيّة كان لقادتها أطماع سياسيّة، أدّت إلى صراع وتنافس فيما بينها، وكان لذلك أثر على الوحدة السّياسيّة للشام.

1233 م)، (1966م)، الكامل في التاريخ، تح: أبو الفداء عبد الله القاضي، ج8، دار الكتب العلميّة، بيروت، ص481 و485.

[1] - أرتق بن أكسب: هو جد الملوك الأرتقيّة، وهو من التركمان، ولّاه تاج الدّولة تُتش على القدس (448 – 449 هـ/ 1056 – 1057 م)، بعد وفاته، مَلِكَ ولداه من بعده وهما سكمان وإيلغازي إلى أن قامت الدّولة الفاطميّة بانتزاع بيت المقدس منهما في عام (491 هـ/ 1097 م). ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد، (ت681 هـ/ 1281م)، (1978م)، وفيات الأعيان، تح: إحسان عبّاس، ج1، دار صادر، بيروت، ص191.

[2] - الأتابك: لقب يتكوّن من لفظتين، أتا بمعنى أب وبك بمعنى أمير، أي الأمير الوالد، وفيما بعد أصبح لحامل هذا اللّقب والمهمّة سلطانًا ونفوذًا في الدّولة، وأدّى ذلك إلى تقسيم الدّولة إلى دويلات مستقلّة يحكمها الأتابكة، وأوّل من تلقّب بذلك نظام الملك وزير السلطان السلجوقي ملكشاه، ابن خلكان، وفيات الأعيان، المصدر السابق، ج1، ص365.

ومن هذه الإمارات الّتي ظهرت بالمنطقة، إمارة بني مرداس في مدينة حلب، بالإضافة إلى أعلى منطقة الفرات، إذ أنّه في سنة (399 هـ/ 1008 م) استولى صالح بن مرداس على مدينة الرحبة على نهر الفرات وأعلن تبعيته للخلافة الفاطميّة، وبدأ يوسّع سلطانه (ابن الأثير، 1966م، ج8، ص53) .

وبحلول سنة (415 هـ/ 1024 م)، تمكّن صالح بن مرداس من الاستيلاء على حلب وقلعتها (الإنطاكي، 1990م، ص390). وواصل طموحه ليوسّع نفوذه ولكنّه قُتل في ظروف غامضة سنة (420 هـ/ 1029 م). وأثناء التوسّع الفاطمي في شمال بلاد الشّام، كان ولدا صالح بن مرداس قد ملكا من بعده، حيث أخذ ابنه "نصر" مدينة حلب، بينما أخذ ابنه "ثُمال" قلعتها، وفي سنة (429 هـ/ 1037 م) قُتل "نصر" ودخل الفاطميّون حلب تحت قيادة "أنوتشكين الدزبري"، ثمّ سلّم الخليفة الفاطمي المستنصر بالله المدينة إلى "ثُمال بن صالح" (ابن العديم، 1996م، ج1، ص201).

وفي فترة حكمه عمّ الرخاء بإمارته، غير أن هناك منافرة حدثت بينه وبين الخليفة الفاطمي، فسيّر هذا الأخير قواته إلى حلب، ولكن سرعان ما عاد وصلُح الحال بينهما. وفي سنة (488 هـ/ 1056 م) سلّم ثُمال بن صالح المدينة للفاطميّين عن طيب خاطر (ابن العديم، 1996م، ج1، ص215 و233)، ولكنّ الأمر لم يستتبّ فاستغلّ ذلك محمود بن شبل الدولة بن صالح بن مرداس ودخلها سنة (452 هـ/ 1060 م) (ابن الأثير، 1966م، ج8، ص352).

نستنتج من ذلك الأمر، بأن الفاطميّين بدأوا يفقدون السيطرة على المنطقة نتيجة انشغالهم في حالة البلاد المصريّة المتردّية، وبسبب عدم اكتراثهم للقوى الصليبيّة الّتي بدأت تغزو منطقة الشّام.

كما ظهرت ببلاد الشام إمارات أخرى، مثل إمارة شيزر والّتي أسّسها سديد الملك علي بن المقلد بن منقذ صاحب بلدة كفرطاب[1]، الّذي استولى على قلعة شيزر والّتي كانت تحت حكم أُسقف مدينة البارة[2]، وهذه الأخيرة

خاضعة للنفوذ البيزنطي، إذ أنّه ضيّق عليها الخناق، وتسلّمها أخيرًا مُقابل بدل مالي في سنة (474 هـ/ 1081م). دخلت هذه الإمارة في صراع مع السلاجقة في بلاد الشّام، كما وأنّها حافظت على كيانها، بعدها تقرّبت من السلاجقة ودخلت في طاعة السلطان ملكشاه (ابن القلانسي، 1983م، ص113).

وبعد وفاة ملكشاه يبدو أنّ الإمارة تجنّبت الدخول في صراع مع أمراء السلاجقة بالشام، وأثناء الحملة الصليبيّة الأولى (490 هـ/ 1096م) باتّجاه مدينة القدس عمل أمير شيزر في خدمة الصليبيّين، كما استطاع أن يؤسّس كيانًا خاصًّا به ويثبّت وجوده طيلة فترة من الزمن (عمران، 2000م، ص105).

استقرّ بنو عمّار في مدينة طرابلس ، وأسّسوا إمارتهم على يد أبي طالب عبد الله بن محمد بن عمار الطائي، غير أن الفاطميّين تمكّنوا من استرجاع المدينة إلى حكمهم. ونتيجة للشدّة المستنصريّة في مصر، تمكّن أبو طالب بن عمّار من الاستيلاء من جديد على طرابلس سنة (462 هـ/ 1069 م)، ولكنّه بقي تابعًا يُدين بالولاء للخلافة الفاطميّة كونه هو وسكان المدينة غالبيتهم على المذهب الشيعي. استطاع أبو طالب بن عمّار أن يوسّع نفوذه على حساب المناطق المجاورة إلى أن توفي سنة (464 هـ/ 1071 م). (المقريزي، 1996م، ج2، ص307).

ومن خلال ما جرى في المنطقة من تنافس بين أمراء البيت السلجوقي، وتطلُّع الفاطميّين للمحافظة على مكانتهم في بلاد الشام، وتقدّم الزحف الصليبي باتّجاه بيت المقدس والّتي سقطت في أيديهم سنة (492 هـ/ 1098 م) (الصوري، 1992م، ج2، ص137). بعد ذلك أصبحت طرابلس قاب قوسين أو أدنى من السقوط في قبضة الصليبيّين، وكان لهم ذلك، إذ توجّهت القوات الصليبيّة إليها وسقطت في أيديهم سنة (503 هـ/ 1109 م) (نهى، 2008م، ص35)، "في هذه السنة مَلِكَ الفرنج طرابلس" (ابن الأثير، 1966م، ج9، ص136).

---

[1] - كفرطاب: وهي بلدة بين معرّة النعمان وحلب، الحموي، معجم البلدان، المصدر السابق، ج4، ص470.

[2] - مدينة البارة: بلدة من نواحي مدينة حلب، وهي ذات بساتين، كما أن البارة إقليم بالجزيرة الخضراء بالأندلس. الحموي، معجم البلدان، المصدر نفسه، ج1، ص320.

كما كانت هناك إمارات عربيّة أخرى في بلاد الشّام، ومنها إمارة ابن أبي عقيل في مدينة صور تنافس عليها السلاجقة والفاطميّون، والّتي خضعت للنفوذ الفاطمي، ونتيجة لسوء أحوالها سقطت أخيرًا في أيدي الصليبيّين، هذا بالإضافة إلى إمارة خلف بن ملاعب في حمص[1] وأفامية[2]، ودخلت هذه الأخيرة في صراع مع إمارة شيزر، فكان لذلك أثر على وجودها (الغامدي، 1982م، ص259 و264). وأثناء تقدّم الصليبيّين باتّجاه بيت المقدس، كانت بعض مُدُن الشام مثل شيزر وحمص وحماة وغيرها من المُدُن والقرى في خدمة أمراء وفرسان الحملة الصليبيّة الأولى (الصوري، 1992م، ج2، ص43).

د – انهيار الحكم الفاطمي في بلاد الشّام:

أدّى تنافس الإمارات العربيّة في بلاد الشّام، والصراع من أجل السلطة داخل البيت السلجوقي، إلى تراجع للنفوذ الفاطمي في منطقة الشّام، بسبب توسّع السلاجقة باتّجاه الجنوب، كما أنّ مصر قد مرّت بأزمة حادّة، كان لها أثرها السلبي على الخلافة، بالإضافة إلى أنْ تمرّد الجند الذين كان لهم تأثيرٌ على إدارة دفّة الحكم (عاشور، 1977م، ص167).

وعشيّة مجيء الفرنج لم يُدرك الفاطميّون حقيقة هذا الغزو، إذ اعتبروا ذلك الغزومثلما يحدث مع البيزنطيّين، وأنّ ذلك لا يمكن أن يتعدّى حدود مدينة أنطاكية، خاصّة وأنّ هذه المدينة خضعت للسيطرة البيزنطيّة، غير أن الفاطميّين بادروا بمراسلة قادة الحملة الصّليبيّة من أجل التعاون لمحاربة السلاجقة واقتسام الشّام (غانم، 1983م، ص46)، وكان ذلك في سنة (491 هـ/ 1097 م) (عاشور، 1977م، ص170). هذا التعاون مع الفرنج والاتّصال بهم، يدلّ على خوف الفاطميّين على مصالحهم السّياسيّة في المنطقة وضياع بلاد الشّام من نفوذ حكمهم.

وبهذه الصراعات والانقسامات تمكّن أمراء وفرسان الحملة الصّليبيّة الأولى من دكّ حصون مُدُن بلاد الشّام والإستيلاء عليها، بل الإستيطان فيها ما يُقارب القرنين من الزمان.

2 – الصّراع الفاطمي البيزنطي:

عاصرت الخلافة الفاطميّة في مصر أواخر عهد الأسرة المقدونيّة الّتي حكمت الإمبراطوريّة البيزنطيّة من سنة (253هـ/ 867م) إلى سنة (448هـ/ 1056م)، ومؤسّس هذه الأسرة هو باسيل الأوّل المُلقّب بـ "المقدوني" الّذي كان أصله من مقدونيا وقبل أن يصل الفاطميّون إلى مصر كانت الجهة الإسلاميّة المواجهة لحدود الإمبراطوريّة البيزنطيّة هي الجهة الشرقيّة والتّي كانت غير موَحّدة ومنقسمة إلى دويلات محدودة القوى مثل إمارة حلب والموصل الخاضعة للحمدانيّين ومن خلفها الدّولة البويهيّة في العراق والدّولة الإخشيديّة في مصر والشّام. وكانت هذه الدّول حديثة المنشأ ولم تستقرّ أمورها بعد، وكانت تقوم بحروب ومُنازعات بين بعضها البعض وبذلك سنحت الفرصة للبيزنطيّين كي يزحزحوا الحدود الإسلاميّة إلى ما وراء جبال طوروس، حيث ظلّت ثابتة هناك زمنًا طويلًا. وبدأ البيزنطيّون فيما بعد فتوحاتهم الشّرقيّة على يد القائد والامبراطور المعروف باسم "نقفور فوكاس الثاني" واسمه باللاتينيّة "Nicephorus Phocas 2"، فاستردّوا جزيرة كريت من أيدي المسلمين سنة (350 هـ/ 961 م)، ثمّ عبروا أوّل مرّة ممرّات جبال طوروس وشنّوا هجومًا على ثغور المسلمين في آسيا الصغرى واستولوا على طرسوس وكليكيا، وهزموا جيش سيف الدّولة الحمداني ثمّ استولوا على مدينة حلب نفسها سنة (351 هـ/ 962 م) ولكنّهم اضطرّوا إلى الانسحاب منها أمام مقاومة الأهالي ونجدات الإخشيديّين.

ثمّ دخل الفاطميّون مصر سنة (358 هـ/ 969 م)، وحاولوا الاستيلاء على حلب ولكنّهم وصلوا إلى دمشق دون سواها، ووجدوا عقبات تحول دون وصولهم إلى البيزنطيّين مثل القرامطة في جنوب بلاد الشام وقوّة الحمدانيّين في شماله، وكانت سياسة الخليفة الفاطمي المعز لدين الله سياسة حذرة تجاه

[1] - حمص: من المُدُن القديمة في بلاد الشّام ذات الأسوار، بها قلعة حصينة، تقع بين مدينتي حلب ودمشق. الحموي، معجم البلدان، المصدر السابق، ج2، ص302 و304.

[2] - أفامية: من مُدُن الشّام ذات الحصانة، قريبة من الساحل، ويُطلق عليها أيضًا اسم فامية. الحموي، معجم البلدان، المصدر نفسه، ج1، ص227.

الحمدانيّين (ابن تغري بردى، 1992م، ج4، ص145)، وانتهز البيزنطيّون هذه الفرصة واحتلّوا مدينة أنطاكية مفتاح الشّام على يد الامبراطور نقفور فوكاس الثاني سنة (358 هـ/ 969 م)، ثمّ خلفه ابن عمّه الامبراطور يوحنا الأوّل واسمه باللّاتينيّة "تزيمسكيس Tzimisces" الّذي بلغت غاراته أراضي بيت المقدس وبغداد، ولمّا ولّي الخليفة العزيز بالله (356 – 386هـ/ 975 – 996م)، اتّخذ سياسة مُغايرة لسياسة أبيه، فقضى على قوّة القرامطة في الشّام ثمّ اصطدم بالدّولة الحمدانيّة الّتي تحول بينه وبين البيزنطيّين (العبادي، 1971م، ص328 – 329).

وفي سنة (377 هـ/ 987 م) قام الفاطميّون بحملة بحريّة لغزو بلاد الروم، غير أن هذه الحملة لم تُحقّق الغرض الّذي أرسلت من أجله لاحتراق مراكبها (ابن خلكان، 1978م، ج1، ص340)، وعلى أثر ذلك أوفد الامبراطور البيزنطي رُسُلًا من قِبله يحملون الهدايا للخليفة العزيز بالله بغرض طلب الصلح بينهما، فاشترط عليهم الخليفة عدّة شروط ومنها؛ إطلاق سراح جميع المسلمين في بلادهم، بالإضافة إلى مدّة الهدنة مع البيزنطيّين سبع سنين (ابن تغري بردى، 1992م، ج4، ص151 – 152).

وفي سنة (384 هـ/ 994 م) اضطرّ الامبراطور البيزنطي "باسيل الثاني" إلى ترك حروبه مع البلغار والتوجّه بنفسه نحو الشّام، وكان الجيش الفاطمي في ذلك الوقت قد ملّ الحروب ونفذت ذخيرته وقوّته، فكتب قادته إلى الخليفة العزيز بالله في مصر يستأذنوه في الانسحاب إلى دمشق، وقبل أن يصل جواب الخليفة رحلوا عن حلب إلى دمشق (الشيّال، 1965م، ص240). عندئذٍ هاجم الجيش البيزنطي المُدُن الشّاميّة الشّماليّة حتّى بلغ مدينة طرابلس. وهناك اشتدّت عليه المقاومة واضطرّ إلى العودة إلى القسطنطينيّة (طقوش، 2011م، ص189) .

أظهر الخليفة الفاطمي غضبه من انسحاب جيشه عن حلب، فأمر بعزل القائد أبي الحسن علي بن الحسين المغربي ثمّ نادى النّاس بالنفير وفتح الخزائن، وأنفق على جنده ثمّ خرج على رأس جيوشه إلى الشّام حاملًا معه توابيت آبائه وأجداده، وحينما وصل إلى بانياس أصابه مرض مفاجئ مات على أثره سنة (386هـ/ 996م) (ابن تغري بردى، 1992م، ج4، ص171).

وفي أوائل عهد الخليفة الحاكم بأمر الله (386 – 411 هـ/ 996 – 1021 م)، استمرّت الخصومة بين الفاطميّين والبيزنطيّين واستطاع الفاطميّون إحراز انتصارين على اعدائهم؛ الانتصار الأوّل كان في البحر حيث انتصرت الأساطيل المصريّة على الأساطيل البيزنطيّة في مياه بحر صور سنة (388 هـ/ 998 م)؛ والانتصار الثاني كان في البرّ عند مدينة أفاميّة حيث انتصر القائد الفاطمي حسين بن الصمصامة على جيوش البيزنطيّين وظلّ يُطاردهم حتّى أبواب أنطاكية دون أن يستولي عليها، ثمّ عاد إلى دمشق. ممّا يدلّ على أن الفاطميّين آثروا الانتقام فقط من البيزنطيّين، ولمّا علم امبراطور الروم بما حلّ بجيشه من الهزيمة، أرسل رسولًا لمفاوضة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في الصلح (شلبي، 1967م، ص78). فأعدّ له الخليفة الفاطمي استقبالًا فخمًا، وأمر بتزيين القصر، وتمّ الاتفاق بين الطرفين على عقد صلح يقضي بوقف الحرب لمدّة عشر سنوات، وتوفير الحريّة الدّينيّة للمسيحيّين المُقيمين في كنف الدّولة الفاطميّة (عمران، 2000م، ص191)، وإمداد مصر بالحبوب والغلال من بيزنطة (المعاضيدي، 1981م، ص117)، وتاريخ هذه الهدنة مُختلف فيه، فالمصادر الإسلاميّة تجعله عشر سنوات تمتدّ من سنة (388 هـ/ 998 م) إلى سنة (397هـ/ 1006م) وأهميّة هذا التحديد سببه أنّ العداء بين الطرفين يعود من جديد وتكون مصر هي البادئة في ذلك عندما هدم الخليفة الحاكم كنيسة القيامة في القدس سنة (398 هـ/ 1007 م)، فتاريخ الهدم حسب المصادر الإسلاميّة يقع بعد انتهاء أمد الهدنة المقرّرة وهي عشر سنوات، أما المصادر البيزنطيّة فترى أنّ الاعتداء وقع أثناء الهدنة. وأنّ الخليفة الحاكم أخلّ بشروط المعاهدة المبرمة بين الطرفين والّتي تنصّ على أنّ الهدنة تقع في الفترة بين سنة (390هـ/ 999م) إلى سنة (400هـ/ 1009م) (باركر، 1979م، ص256).

كما يُنسب إلى الخليفة الحاكم بأمر الله أنّه استطاع القضاء على الدّولة الحمدانيّة والاستيلاء على حلب (404هـ/ 1013م) وهذا العمل يُعدُّ نصرًا له على الإمبراطوريّة البيزنطيّة نفسها لأن صار له فيها مركزٌ يمكّنه من مناوأة الروم مباشرة في أنطاكية (حسن، 1967م، ص258).

وعندما ولّي الظاهر لإعزاز دين الله الخلافة (411 – 427 هـ/ 1021 – 1036 م)، عمل على استمرار العلاقات الوديّة مع البيزنطيّين. وتبيّن أنّه "في سنة (429 هـ/ 1037 م) تمّ الاتفاق بين الخليفة الفاطمي والامبراطور ميخائيل الرابع على أن يطلق الروم خمسة آلاف أسير للمشاركة في بناء كنيسة القيامة الّتي هدمها الخليفة الحاكم بأمر الله، وقد تبرّع الامبراطور بأموال جليلة لإنجاز هذا العمل على حسابه الخاص" (أبو الفداء، 1967م، ج2، ص158).

الجدير ذكره أنّه "في سنة (446 هـ/ 1054 م) بعث الخليفة المستنصر بالله إلى ملك الروم بالقسطنطينيّة قسطنطين التاسع أن يُرسل الغلال إلى مصر، لمواجهة المجاعة الّتي حلّت بمصر في تلك السنة، فأطلق الأموال وعزم على حملها إلى مصر فأدركه أجله ومات قبل ذلك. فقام في المُلك زوجة الامبراطور ثيودورا حيث اشترطت على الخليفة المستنصر أن يكون لها عونًا ويمدّها بعساكر مصر إذا ثار عليها أحد". ولكن الخليفة الفاطمي أبى أن يسعفها في طلبها، فجرّدت لذلك حملة قضت بهزيمة الجيش الفاطمي، اضطرّ بعدها الخليفة أمام هذه الهزيمة إلى وقف القتال وطلب الهدنة بعدما راسل في سنة (447 هـ/ 1055 م) الامبراطورة ثيودورا (المقريزي، 1991م، ج1، ص339) .

ممّا تقدّم نرى أن الفاطميّين قد تركوا الحالة في الشّام في أواخر عهدهم بعدما ضعُفت همّة الخليفة الفاطمي وأوشكت الخلافة الفاطميّة على الزوال لما عانته من أزماتها الدّاخليّة وضعف مركز الخلافة واستلام الوزراء الفاطميّين زمام إدارة الحكم. أمّا البيزنطيّون فقد ظلّوا محتفظين بالفتوحات والمكاسب الّتي أحرزوها قبل دخول الفاطميّين إلى بلاد الشّام، فالموقف إذًا لم يتغيّر والحروب بين الدّولتين لم تأت بنتيجة بل تفاقمت الأمور وزادت أمام أطماع الغزاة الفرنج الجدد في تلك المنطقة.

المبحث الثاني – تفكّك الجيش وأثره على زوال الخلافة الفاطمية (567 هـ/ 1171 م).

1 –انهيار الجيش الفاطمي.

اعتمد الفاطميّون في تكوين جيشهم وإقامة دولتهم بشكل كبير على جميع مكوّنات المجتمع العرقيّة والدّينيّة، فكان الوزراء وقادة الجيوش من الترك والصقالبة والأحباش والأرمن، وقد ساهم هذا الخليط العرقي في تثبيت أركان الخلافة الفاطميّة قبل أن يتحوّل إلى وبال عليها لاحقًا، وقد مرّت على الخلافة الفاطميّة فترات ذهبيّة قبل أفولها وبخاصّة في عهد الخليفة العزيز بالله، حيث بلغت الخلافة أوج اتّساعها حينما سيطرت على أجزاء كبيرة من الشّام والحجاز بل وهدّدت مركز الخلافة العبّاسيّة في العراق.

ومن الواضح أنّ للمعارك الّتي خاضها الجيش الفاطمي في مواجهة الحملات الصليبيّة الدور والأثر الأكبر في إضعاف الجيش. فكما هو معلوم في تلك الفترة وتحديدًا النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، كانت المنطقة مقسّمة بين ثلاث قوى رئيسة؛ هي الخلافة العبّاسيّة في العراق والخلافة الفاطميّة في مصر، أمّا القوّة الثالثة هي قوّة الإمبراطوريّة البيزنطيّة. ومع بداية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي زادت المنطقة قوّة جديدة عُرفت بالقوّة الصّليبيّة متمثّلة بالحملات العسكريّة الآتية من الغرب الأوروبي إلى مصر وبلاد الشّام.

ومن المعروف أنّ الخلافة العبّاسيّة قد أصابها الضعف والانحلال ومُزّقت أوصالها إذ لم يعد لها أي نفوذ على الولايات التابعة لها إلّا النفوذ الرّوحي، لكن حالها قد تغيّر نوعًا ما بسبب قدوم السلاجقة. فقد استطاعوا التخلّص من البويهيّين، ثمّ غدا السلاجقة جند الخلافة العبّاسيّة وحُماتها وأداتها الحربيّة في التصدّي لأعدائها البيزنطيّين والفاطميّين.

أمّا القوّة الإسلاميّة الأخرى فهي الخلافة الفاطميّة في مصر، فقد نجحوا بعد جهود جبّارة في الاستيلاء على بلاد الشّام. فلم يمضِ عام واحد على دخول الفاطميّين مصر سنة (358 هـ/ 969 م) حتّى أرسل قائد الفاطميّين جوهر الصقلي حملة إلى بلاد الشام سنة (359 هـ/ 970 م) بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي بغية انتزاعها من سلطان الخلافة العبّاسيّة، ولتأمين حدود مصر من ناحية الشّام. وبالفعل استطاع جعفر الاستيلاء على دمشق ودخولها سنة (360 هـ/ 971 م) بعد موقعتين حاسمتين؛ الأولى في الرملة والثانية

في طبرية، وهكذا بسط الفاطميّون نفوذهم على بلاد الشّام عدا أنطاكية الّتي كانت لا تزال تحت سيطرة الامبراطوريّة البيزنطيّة (سرور، 1964م، ص16 – 17) .

لكن نفوذ الخلافة الفاطميّة في بلاد الشّام أخذ بالانكماش بعد سنة (450 هـ/ 1058 م)، وذلك بسبب ما كانت تُعانيه الخلافة من أزمات سياسيّة وعسكريّة داخليّة وخارجيّة. وقد حاول الفاطميّون استعادة نفوذهم في الشّام مرّة أخرى بواسطة بعض من الحملات العسكريّة، فنجحوا في استعادة بعض المُدُن السّاحليّة (بيروت وصيدا... وغيرها) وهي المناطق الّتي ظلّت بأيديهم حتّى وصول الحملة الصّليبيّة الأولى (سالم، 1970م، ص82).

من المفيد أن نؤكّد على علاقة الفاطميّين بالعبّاسيّين، فكان الصّراع هو السمة الغالبة على تلك العلاقة. وقد قامت الخلافة الفاطميّة بدعم كثير من الحركات ضدّ الخلافة العباسيّة، ومثال على ذلك دعمها لحركة البساسيري[1] الّذي تمكّن من دخول بغداد سنة (450 هـ/ 1058 م) وبعدها أقام الخطبة للفاطميّين.

ومن البديهي أنّ هذه الانقسامات جاءت على حساب وحدة الجبهة الإسلاميّة، الأمر الّذي جعل الأجواء ممهّدة للفرنج لغزو بلاد الشّام في سهولة والاستقرار فيها ردحًا من الزمن)ٍ **Stevenson, 1930, P153)**.

أمّا القوّة البيزنطيّة وهي القوّة الثالثة الّتي كانت تحكم الشرق الأدنى الإسلامي، فكانت قد نالت هزيمة ساحقة من قِبل السلاجقة في معركة ملاذكرد سنة (463 هـ/ 1071 م) والّتي كانت بمثابة الكارثة العظمى والزلزال المُدمّر على الامبراطوريّة البيزنطيّة، ولقد نجم عن انتصار السلاجقة أن استولوا على معظم أراضي آسيا الصغرى. وأخذ الخطر السلجوقي يحدّق بالعاصمة البيزنطيّة وبالتالي لم يبقَ لها من الأراضي سوى سواحل البحر الأسود وبعض المُدُن الدّاخليّة المُتناثرة الّتي فقدت صلتها إلى حدٍّ كبير بالحكومة المركزيّة في القسطنطينيّة، لذا جاءت الحروب الصّليبيّة[2] لتمثّل مصلحة مشتركة بين البيزنطيّين والغرب المسيحي (العابد، 1987م، ص65).

تلك كانت أحوال القوى السّياسيّة في الشّرق الأدنى الإسلامي قُبيل قدوم الغزاة الصّليبيّين. فالصّليبيّون لم يواجهوا جيشًا إسلاميًّا موّحدًا بل كانوا يُواجهون قوى مُتفرّقة. وقد تحرّكت الحملة الصّليبيّة الأولى في شهر (رمضان 489 هـ/ آب – أغسطس 1096 م) إلى الشرق الإسلامي (عاشور، 1973م، ج1، ص106).

وتماشيًا مع ما تمّ ذكره، تمكّنت الخلافة الفاطميّة في القاهرة، من تأسيس جيش كبير، إلّا أنّها على غرار الخلافة العبّاسيّة في بغداد، لم تعتمد على العنصر العربي الّذي استمرّ بعيدًا عن الجنديّة. بينما أكثرت الخلافة الفاطميّة من الاعتماد على الجنود المرتزقة من غير أبناء مصر من المغاربة والترك

---

[1] - البساسيري: هو أبو الحارث أرسلان بن عبد الله قائد جند الأتراك في بغداد. كان من مماليك بهاء الدّولة البويهي. تدرّج في مناصب الدّولة فحظيَ بمكانة رفيعة عند الخليفة العبّاسي القائم بأمر الله (467 – 485 هـ/ 1074 – 1092 م) حتّى غدا الخليفة لا يقطع أمرًا إلّا بمشورته، بعدها تمرّد على الخليفة ودعا إلى الفاطميّين. ابن خلكان، وفيات الأعيان، المصدر السابق، ج1، ص192.

[2] - الحروب الصّليبيّة: على امتداد قرنين من الزمن زحفت على الدّولة العربيّة الإسلاميّة، ثماني حملات صليبيّة، جهزها الغرب الأوروبي؛ أربع منها اتّجهت إلى بلاد الشّام هي؛ الحملة الصليبيّة الأولى (490 – 493 هـ/ 1096 – 1099 م) بقيادة غدفروا دي بويون وبوهيمند وريمون دي سانجيل، والحملة الثانية (524 – 544 هـ/ 1129 – 1144م) بقيادة ملك ألمانيا وملك فرنسا، والحملة الثالثة (585 – 588 هـ/ 1189 – 1192 م) بقيادة فريدريك باربروس امبراطور ألمانيا وملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد وفيليب أغسطس ملك فرنسا، والحملة الرابعة (599 – 601 هـ/ 1202 – 1204 م) بقيادة بلدوين التاسع، واثنان على مصر هي الخامسة (616 – 618 هـ/ 1219 – 1221 م) بقيادة ملك القدس وملك المجر، والحملة السادسة (626 – 627 هـ/ 1227 – 1229 م) بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، والحملة السابعة (646 – 652 هـ/ 1248 – 1254 م) بقيادة فريدريك الثاني، أما الحملة الثامنة (666 – 669 هـ/ 1267 – 1270 م) بقيادة لويس التاسع ضدّ تونس، وعدد الحملات الصغيرة فلم تحلّ سنة واحدة من سيل المسلّحين المتمرّدين على الدّولة الإسلاميّة. العابد، صالح، (1987م)، الحروب الصّليبيّة، دوافعها وبواعثها الممهدة، دار المعارف المصريّة، القاهرة، ص57.

والصقالبة والسودان والأرمن، وهذا الأمر أدّى إلى قيام الفتن، وبذلك تحوّل الجيش الفاطمي إلى خليط وَهُم جميعًا من المرتزقة الّذين يعتمدون في عيشهم وحياتهم على الحروب والقتال.

وأهم ما يُميّز النظام العسكري الفاطمي، هو الاهتمام بالبحريّة وتدعيم الأسطول لحفظ الثغور الممتدّة على طول الساحل الشرقي لحوض البحر الأبيض المتوسط، سواء في مصر أو في بلاد الشّام وبعض الجُزُر مثل صقلية ومالطة. وهذا الأمر أدّى إلى الحفاظ على المشرق الإسلامي **(Cahen, 1940, P245).**

ومع الجيش والبحريّة، عرفت الخلافة الفاطميّة عصرها الذهبي في المرحلة الأولى، ومع تولّي أمير الجيوش بدر الجمالي الوزارة (468 – 487 هـ/ 1075 – 1094 م)، استبدّ الجيش بالوزارة الّتي تحوّلت من وزارة تنفيذ إلى وزارة تفويض. وأصبح الخليفة ألعوبة بيد الوزير في المرحلة الثانية من عصر الخلافة الّتي عرفت بمرحلة عصر الوزراء.

كما بقيَ الأسطول البحري محل عناية الوزراء الفاطميّين إلى أن قام النزاع بين مصر والفرنج، فأمر الوزير الفاطمي شاور بإحراق مدينة الفسطاط ليمنع وصول الأعداء، كما أحرق مراكب الأسطول. هذا في بداية الأمر ولكن هذا الوزير نفسه انقلب على الخلافة الفاطميّة لأطماع سياسيّة وأخذ يتعاون مع أعداء الأمس وحلفاء اليوم الفرنج، كانت نهاية ذلك مقتله على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي.

2 – سقوط الدّولة الفاطميّة:

عندما انغمس الحكّام الفاطميّون في الترف وسكنوا القصور الجميلة وتمتّعوا بالملذّات ووكّلوا أمور النّاس وشؤون الدّولة إلى الغير، كان من جرّاء ذلك ان استأثر الوزراء بالمناصب شيئًا فشيئًا حتّى كانوا يلقّبون بلقب "ملك" (سرور، 1963م، ص114).

ومع أنّ اسم الخلفاء الفاطميّين كان يتردّد في خطب الجمعة من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر، بل في بلاد اليمن والحجاز والموصل. ومع هذا فقد أخذت قوّة الفاطميّين في الأفول والانحلال. وفي الواقع يمكننا القول أنّه تضافرت عدّة عوامل أدّت في مجملها إلى سقوط الدّولة الفاطميّة، كان أبرزها:

1 – المُغالاة في التعصّب للتشيّع ممّا جعل العامّة في مصر يؤيّدون أيّة حركة تُعيدهم للفكر السنّيّ.

2 – ترك الخلفاء السلطة لما يُعرف بالوزراء العظام الّذين كان أوّلهم بدر الجُمالي. هؤلاء الوزراء تنافسوا على السلطة والحكم واستنجدوا بأعداء الدّولة. أمثال الوزير الفاطمي ضرغام واتّصاله بالفرنج، كذلك فعل الوزير شاور بنور الدين محمود آل زنكي ومن ثمّ اتّصل بالفرنج. كما أدّى الأمر ببعض الوزراء إلى تحكّمهم في اختيار الخليفة.

3 – عندما فقدت الخلافة ارتباطها بالإمامة، أي بتولية الخلافة للابن الأكبر وليس للأخ كما هو منصوص، استغلّ الوزراء الفاطميّون هذا التحوّل والانقلاب على الإمامة، من أجل مصالحهم وأطماعهم السّياسيّة وتفضيل أخ عن أخيه لتولية الخلافة.

4 – عندما دبّ النزاع بين الوزير شاور وأسد الدين شيركوه انتصر الأخيرثمّ تولّى الوزارة في مصر باسم الخليفة الفاطمي، وعندما توفي عُهِدَ بالوزارة إلى ابن أخيه صلاح الدين وهذا الأخير انتهز فرصة مرض الخليفة الفاطمي العاضد، وأعلن زوال الخلافة الفاطميّة سنة (567 هـ/ 1171 م) دون مُعارضة تُذكر.

5 – إعلان دولة بني زيري في المغرب وانفصالها عن الخلافة الفاطميّة (مرمول، 1983م، ص231)

6 – تولية كثير من الخلفاء ولم يبلغوا الحلم، أمثال: الحاكم بأمر الله، الظاهر لإعزاز دين الله والمستنصر بالله.

7 – زيادة نفوذ الوزراء في العهد الفاطمي الثاني (468 – 567 هـ/ 1075 – 1171 م) مرحلة الضعف، كما تمثّل نفوذهم في تولّي الوزير الوزارة لأكثر من خليفة، وتوريث الوزارة لأبنائهم من بعدهم (ابن ميسر، 1980م، ص35) .

8 – خرق نظام الوراثة في ولاية العهد أكثر من مرّة ممّا أدّى إلى انقسام البيت الفاطمي نفسه وضياع هيبته.

9 – الشدّة المستنصريّة العظمى الّتي حدثت في منتصف عصر خلافة المستنصر سنة (457 هـ/ 1064 م)، واستمرّت لأكثر من سبع سنوات ممّا أدّى لانهيار الاقتصاد والكساد التجاري وانتشار الأوبئة والمجاعات وموت الآلاف كل يوم (المقريزي، 1996م، ج8، ص65).

10 – طمع القوى المحيطة بالدّولة الفاطميّة في مصر وبلاد الشام وأهمّها القوات الصّليبيّة (ابن واصل، 1957م، ص152).

11 – الوجود الصليبي في بلاد الشام وما سبّبه من ضياع لأملاك الفاطميّين في المنطقة.

12 – انهيار الخلافة الفاطميّة سياسيًّا وإداريًّا في عهد آخر خلفائها العاضد (سرور، 1963م، ص118).

13 – قوّة السلطان صلاح الدين الأيوبي وشخصيّته البطوليّة الفذّة وسياسته الحكيمة، وظهوره في الوقت الّذي ضعُفت فيه الدّولة الفاطميّة وكاد أن يسقط العالم العربي الإسلامي بأيدي الغزاة الفرنج.

14 – الانقسامات الّتي حدثت داخل المذهب الإسماعيلي نفسه حيث أنّ انقسام الدعوة إلى فرقة النزاريّة وفرقة المستعلية ولّد فريقين مُتخاصمين حيث وصل الحدّ بالفرقة النزاريّة إلى قتل الخليفة الآمر بأحكام الله (حسن، 1967م، ص316) .

15 – ظاهرة الاعتماد على اليهود والنصارى والّتي كانت سمة من سمات الحكم في الخلافة الفاطميّة.

16 – سوء الأحوال بصورة عامّة، فقد ذاقت البلاد من الجوع والبؤس والنزاع على السلطة ما أحالها إلى فوضى لم يشهد التاريخ مثلها، هذه الحالة "لم تجد البلاد صلاحًا ولا استقام لها أمرٌ، وتناقضت عليها أمورها، ولم يستقرّ عليها وزير تُحمد طريقته، وتلاشت الأمور واضمحلّ المُلك" (المقريزي، 1996م، ج2، ص263).

17 – ألم يفكّر ابن حمدون زعيم الأتراك في مصر – ذكر سابقًا في سياق البحث – في تغيير الخلافة الفاطميّة إلى العبّاسيّة، وكانت حال البلاد والفاطميّين تسمح بتحقيق كلّ ذلك.

18 – ألم يصبح بيد الوزراء كل مقاليد الحكم حتّى أنّهم لم يدعوا للخلافة ولا للخليفة – في أغلب الأوقات – إلّا الاسم فقط، وكانوا يتحكّمون في اختيار الخلفاء وفي عزلهم. والمؤرّخون القريبون من الخلافة الفاطميّة يعتبرون سقوط الخلافة الفاطميّة قد بدأ من تاريخ تولية بدر الجمالي أمور مصر سنة (464 هـ/ 1071 م)، وأيضًا ألم يقم صلاح الدين بإسقاط الخطبة عن الفاطميّين – دون أيّة معارضة أو مقاومة حقيقيّة، وإلى اسقاط عهد الوزراء ليبدأ بالعمل على تأسيس الدّولة الأيوبيّة.

ولكن يبقى التساؤل المطروح، ألم يسقط الفاطميّون منذ مدّة طويلة، أي قبل ذلك بقرن؟!

إلغاء دور الخلافة الفاطميّة كقوّة في مصر وفي العالم الإسلامي، وقد جاءت هذه الخطوة بعد الحملات العسكريّة الثلاثة الّتي قادها نور الدين محمود إلى مصر بناءً على طلب من الدّاخل المصري، وتولّي أسد الدين شيركوه الوزارة في مصر وبعد وفاته آلت الوزارة بأمر من الخليفة الفاطمي العاضد إلى صلاح الدين ولقّبه بالملك الناصر، وبعد مجموعة الحملات العسكريّة الّتي قادها صلاح الدّين ضدّ الفرنج أكسبته محبّة أهل مصر بل العالم الإسلامي أجمع، وهابه الغرب لسعيه للوحدة الإسلاميّة بعد أن فُقدت، ولبطولاته ومتابعة الجهاد والمقاومة ضدّهم. وقد تدرّج صلاح الدّين في إعلان إلغاء الخلافة الفاطميّة شيئًا فشيئًا، ولعلّ أهم الوسائل الّتي اتّخذها صلاح الدّين للقضاء على المذهب الشيعي والتراث الفاطمي هي:

أ – إضعاف الخليفة الفاطمي العاضد وذلك بالقضاء على فكرة الولاية.

ب – إقامته في قصر الخلافة الفاطميّة.

ج – قطع الخطبة الفاطمية من الجامع الأزهر وأبطال تدريس الفكر الإسماعيلي فيه.

د – إزالة الشعائر الدّينيّة الشّيعيّة الّتي أدخلها الفاطميّون إلى مصر وعلى المجتمع المصري الّتي رفضها من الأساس، فأبطل قول "حي على خير العمل" واستمرّ الأذان في مصر على المذهب السنّي إلى يومنا هذا.

وهكذا فإنّ التدابير الّتي اتّخذها زُعماء أهل السنّة أمثال "نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي" أتت ثمارها وقضى أهل السنّة على الدّولة الفاطميّة الشّيعيّة وأبادوا تراثها وتتبّعوا أفرادها في مصر

وخارجها، وانكمش التشيّع ودخل في طور التستّر، وبدأ المذهب الشّيعي يختفي من مصر، واستمرّ الأيوبيّون بقيادة صلاح الدين بالقضاء على الدّعوة الإسماعيليّة في مصر واليمن والشّام واستكمال ما بدأ به السلاجقة والزنكيّون في محاربة الدّعوة الشّيعيّة ونشر الدّعوة السنيّة في البلاد الإسلاميّة.

وخلاصة القول فإنّ أسباب سقوط الخلافة الفاطميّة ونهايتها متعدّدة، ولعلّ أبرزها الحملات الصليبيّة الّتي جاءت إلى المنطقة وأحاطت بمصر معقل الخلافة الفاطميّة، بل الغريب في الأمر أنّ هذه الحملات وجدت تشجيعًا من بعض الوزراء الفاطميّين الّذين يُريدون تحقيق مطامعهم. كما وأنّ الفاطميّين أنفسهم استعانوا بهم في بعض الأوقات ضدّ تقدّم السلاجقة في الشّام.

بجانب الضعف العام للجيش الفاطمي الّذي أنهكه التناحر كما بيّنا مسبقًا وأوضحنا فيما سبق عن النزاع الّذي حصل بين عناصر الجيش، وما جرى من اقتتال بين طوائفه المختلفة الكتامية، السودانيّة والتركية، الأمر الّذي تسبّب في ضعف كبير كانت عواقبه الوخيمة والسالبة على قوّة الجيش. كما أدّى انصراف قادته عن تدريبه وتسليحه والقيام بأمره وأمر جنوده إلى مزيد من الضعف ممّا زاد من سوء حالة هذا الجيش. فضلًا عن انصراف الخلفاء عن إدارة الدّولة وانشغال بعضهم بالملذّات، وضعف شخصيّة البعض الآخر، وسيطرة الوزراء الأقوياء على أمور البلاد، أوصلت الخلافة الفاطميّة إلى هذا الوضع المُتردّي وإلى سقوطها نهائيًّا سنة (567 هـ/ 1171 م) ليحلّ محلّها السلطان الناصر صلاح الدّين الأيوبي مؤسّس الدّولة الأيوبيّة.

خاتمة واستنتاجات

شكّلت العوامل العسكريّة أثرًا مهمًّا في تحوّل مصر من الحكم الفاطمي إلى الحكم الأيوبي، لذلك خلُص هذا البحث إلى بعض الاستنتاجات وهي على الشكل التالي:

1 – من الواضح أن الفاطميّين في بداية الأمر اهتمّوا كثيرًا بإعداد جيش قوي يكون عدّتهم وقت الحرب ولا سيّما اهتمامهم بالأسطول البحري، ويحمي دولتهم في المشرق والمغرب، ويساعدهم على مدّ نفوذهم وتوسيع أراضيهم. وبهذا الجيش تمّ لهم الاستيلاء على مصر والسيطرة على بلاد الشّام والحجاز واليمن.

2 – ممّا لا شكّ فيه أنّ الجيش الفاطمي امتاز بتنوّع بنيته البشريّة، إذ ضمّ عناصر مختلفة، وقد استمر بعضها إلى عهد الخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميّين، وبعضها استجدّ في عهده، كإضافة عنصر الأكراد إلى الجيش. واستبعد عن هذا الجيش العنصر العربي كما استبعد عنه اهل البلاد المصريّة وهذا أدّى في نهاية الأمر إلى إضعاف الجيش وليس إلى تقويته كون هذه العناصر ستعمل لمصالحها وأطماعها كلّما سمحت الظروف لها بذلك.

3 – يُلاحظ أن هذه الطوائف لعبت دورًا مهمًّا داخل الخلافة الفاطميّة من المغاربة والأرمن والسودان والأتراك والأكراد وغيرهم، ولكن هذا الدور انقلب إلى التناحر والفتن والاقتتال الدّاخلي ممّا أدّى إلى أضعاف هيبة الخلافة وإداراتها واستنجاد الخليفة الفاطمي بالقوى الخارجيّة لوضع حدّ للفوضى الداخليّة أدخلت البلاد في نفق عهد الوزراء وهذا ما سرّع بإسقاط الخلافة الفاطمية سنة (567 هـ/ 1171 م).

4 – بصرف النّظر عن عناصر الجيش المرتزقة، ظلّ ذلك الجيش معطاء، يُدافع تارةً، ويستولي على بلاد تارة أخرى حتّى انهارت الخلافة الفاطميّة من الداخل بسبب سياسات الوزراء الفاطميّين الّذين ما انفكّوا يُحاولون إسقاط تلك الدّولة الشّيعيّة من أجل مصالحهم الشخصيّة.

5 – وبطبيعة الحال مثلما كان للاقتتال الداخلي وتردّي حالة البلاد الاقتصاديّة دورٌ في إضعاف الدّولة والجيش، كان أيضًا للحروب الخارجيّة مع السلاجقة والبيزنطيّين والصليبيّين دورٌ في انهيار الخلافة الفاطميّة وجميع مؤسساتها وإداراتها. ولكي نبني دولة قويّة علينا أيضًا أن نبني جيشًا قويًّا محصّنًا داخليًّا بالروح الوطنيّة والانتماء.

6 – أعيدت مصر إلى حظيرة الخلافة العباسيّة على يد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي مؤسّس الدّولة الأيوبيّة، الّذي لم يكن ليخفي يومًا ولاءه للخليفة العبّاسي في بغداد. وبهذا أعيد المذهب السنّي إلى المجتمع المصري الّذي رفض كل أشكال التشيّع وعاداته واحتفالاته وبدعه الّتي كانت غريبة على

عاداته وتقاليده المصريّة. ومن خلال ما تقدّم يمكننا أن نظهر أثر العوامل الدّينيّة في تحوّل مصر من الحكم الفاطمي إلى الحكم الأيوبي.

قائمة المصادر والمراجع:

أوّلًا – المصادر العربيّة:

- ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري، (ت630 هـ/ 1233 م)

1 – (1966م)، الكامل في التاريخ، تح: أبو الفداء عبد الله القاضي، ج3، ج8، ج9، الكتب العلمية، بيروت.

- ابن تغري بردى، أبو المحاسن جمال الدين يوسف، (ت875 هـ/ 1470 م)

2 – (1992م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر، ج4، مكتبة دار العلم، بيروت.

- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد، (ت681 هـ/ 1281 م)

3 – (1978م)، وفيات الأعيان، تح: إحسان عبّاس، ج1، ج2، دار صادر، بيروت.

- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل الشافعي، (ت665 هـ/ 1267 م)

4 – (2002م)، الروضتين في أخبار الدولتين النوريّة والصلاحيّة، تح: إبراهيم شمس الدّين، ط1، ج3، دار الكتب العلميّة، بيروت.

- ابن الصيرفي، أبو القاسم علي بن منجب، (ت542 هـ/ 1147 م)

5 – (1996م)، الإشارة إلى من نال الوزارة، تح: أيمن فؤاد السيّد، الدار المصريّة، القاهرة.

- ابن العديم، كمال الدّين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله الحلبي، (ت660 هـ/ 1262 م)

6 – (1996م)، زبدة حلب من تاريخ حلب، تح: خليل منصور، ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت.

- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن نور الدّين علي بن أيوب، (ت732 هـ/ 1332 م)

7 – (1967م)، المختصر في أخبار البشر، تح: محمود ديّوب، ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت.

- ابن القلانسي، أبو يعلي حمزة بن أسد، (ت555 هـ/ 1160 م)

8 – (1983م)، ذيل تاريخ دمشق، تح: سهيل زكار، دار حسان، دمشق.

- ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر الدمشقي، (ت774 هـ/ ذ373 م)

9 – (1981م)، البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط4، ج12، دار المعارف، بيروت.

- ابن ميسر، محمد بن علي، (ت677 هـ/ 1278 م)

10 – (1980م)، المنتقى من أخبار مصر، تح: أيمن فؤاد السيّد، ط1، المعهد العلمي الفرنسي للآثار، القاهرة.

- ابن واصل، جمال الدّين محمد بن سالم الشّافعي، (ت697 هـ/ 1298 م)

11 – (1957م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح: جمال الدّين الشيّال، الجامعيّة المصريّة، القاهرة.

- الأصفهاني، عماد الدّين أبو عبد الله محمد الفتح بن علي، (ت597 هـ/ 1201 م)

12 – (1990م)، تاريخ دولة آل سلجوق، ط2، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

- الأنطاكي، يحيى بن سعيد بن يحيى، (ت458 هـ/ 1069 م)

13 – (1990م)، تاريخ الأنطاكي، تح: عمر عبد السلام تدمري، الناشر جروس برس، طرابلس.

- الحموي، شهاب الدّين ياقوت بن عبد الله (ت626 هـ/ 1229 م)

14 – (1979م)، معجم البلدان في معرفة المدن والقرى، دار الثقافة، بيروت.

- المقريزي، تقي الدّين أحمد بن علي، (ت845 هـ/ 1441 م)

15 – (1991م)، المواعظ والاعتبار (الخطط)، تح: خليل منصور، ج1، ج2، دار الكتب العلميّة، بيروت.

16 – (1996م)، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمّة الفاطميّين، تح: جمال الدّين الشيّال وآخرون، ج1، ج2، مكتبة

الأنجلو المصريّة، القاهرة.

ثانيًا – المراجع العربيّة:

- الأعظمي، محمد حسن

17 – (1960م)، عبقريّة الفاطميّين، دار مكتبة الحياة، بيروت.

- الإسكندري، عمر

18 – (1991م)، تاريخ مصر، الهيئة العربيّة للكتاب، القاهرة.

- البراوي، راشد

19 – (1988م)، حالة مصر الاقتصاديّة في عهد الفاطميّين، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة.

- جلال، إبراهيم

20 – (1963م)، المعز لدين الله الفاطمي وتشييد مدينة القاهرة، دار الفكر العربي، القاهرة.

- جلال طه، أبو بكر

21 – (1967م)، صلاح الدّين أسد القارتين، دار المعارف، القاهرة.

- حسن، حسن إبراهيم

22 – (1967م)، تاريخ الإسلام السّياسي والديني والثقافي، ط1، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة.

- الحنفي، سليمان رصد

23 – (1978م)، كنز الجوهر في تاريخ الأزهر، العصريّة للطباعة والنّشر، القاهرة.

- الخربوطلي، علي حسين

24 – (1968م)، العزيز بالله الفاطمي، دار الكتاب العربي، القاهرة.

- زكي، عبد الرحمن

25 – (1966م)، القاهرة تاريخها وآثارها، الدار المصريّة للتأليف والترجمة، القاهرة.

- سالم، عبد العزيز

26 – (1970م)، دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، مكتبة النهضة العربيّة، بيروت.

- سرور، محمد جمال الدّين

27 – (1963م)، مصر في عصر الدّولة الفاطميّة، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة.

28 – (1964م)، النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، ط4، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة.

- سيّد، أيمن فؤاد

29 – (1992م)، الدولة الفاطميّة في مصر تفسير جديد، ط1، الدار المصريّة – اللّبنانيّة، القاهرة.

- شلبي، أحمد

30 – (1967م)، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلاميّة، ط1، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة.

- الشيّال، جمال الدّين

31 – (1965م)، مجموعة الوثائق الفاطميّة، ط2، دار المعارف، القاهرة.

- طقوش، محمد سهيل

32 – (2011م)، تاريخ الحروب الصّليبيّة، دار النفائس، بيروت.

33 – (2014م)، تاريخ الفاطميّين في شمالي أفريقية ومصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت.

- العابد، صالح

34 – (1987م)، الحروب الصّليبيّة، دوافعها وبواعثها الممهدة، دار المعارف المصريّة، القاهرة.

- عارف، باشا

35 – (1991م)، تاريخ القدس، ط2، ط2، دار المعرف المصريّة، القاهرة.

- العبادي، أحمد مختار

36 – (1971م)، في التاريخ العبّاسي الفاطمي، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة.

- عبد الكريم أحمد، ناريمان

37 – (1993م)، المرأة في مصر في العصر الفاطمي، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة.

- عاشور، سعيد عبد الفتاح

38 – (1973م)، الحركة الصّليبيّة صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، ط1، ج1، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة.

39 – (1977م)، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، جامعة بيروت العربيّة، بيروت.

- عمران، محمود سعيد

40 – (2000م)، تاريخ الحروب الصّليبيّة، دار المعرفة الجامعيّة، القاهرة.

- غانم، حامد زيدان

41 – (1983م)، الصراع السّياسي والعسكري بين القوى الإسلاميّة زمن الحروب الصّليبيّة، دار الثقافة للنشر، القاهرة.

- مرمول، محمد صالح

42 – (1983م)، السّياسة الدّاخليّة للخلافة الفاطميّة في بلاد المغرب الإسلامي، دار المعارف، القاهرة.

- المعاضيدي، خاشع

43 – (1981م)، تاريخ الوطن العربي والغزو الصّليبي، دار العلم، بيروت.

- نهى، فتحي الجوهري

44 – (2008م)، إمارة طرابلس الصّليبيّة في القرن الثالث عشر الميلادي، دار العالم العربي، القاهرة.

ثالثًا – المراجع العربيّة المعرّبة:

- باركر، آرنست

45 – (1979م)، الحروب الصّليبيّة، ترجمة: السيّد الباز العريني، ط2، دار النهضة العربيّة، بيروت.

- ل. أ. سيمينوفا

46 – (2001م)، تاريخ مصر الفاطميّة، تعريب: حسن بيومي، المشروع القومي للترجمة، القاهرة.

- الصوري، وليم، (ت581 هـ/ 1185 م)

47 – (1992م)، تاريخ الحروب الصّليبيّة، تعريب: حسن الحبش، ط1، ج2، الهيئة المصريّة العامّة، القاهرة.

رابعًا – الرسائل والأطاريح الجامعيّة:

- الغامدي، علي محمد

48 – (1982م)، بلاد الشّام قبل الغزو الصّليبي، رسالة ماجستير، كليّة الشّريعة والدراسات الإسلاميّة، جامعة أم القرى، القاهرة.

خامسًا – المصادر والمراجع الأجنبيّة:

- **Cahen, C**

49 – (1940), **La Syrie Nord a L'Europe des Croisades,** Paris

- **Stevenson, W.R**.

50 – (1930), **Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem,** 2 et 3 Vols, Paris.

أثر العوامل العسكريّة في تحوّل مصر من الحكم الفاطمي إلى الحكم الأيوبي (362 – 567 هـ/ 972 – 1171م)

The Impact of Military Factors on Egypt's Transition from Fatimid Rule to Ayyubid Rule (362 – 567 AH/ 972 – 1171 AM)

يُقدّم هذا البحث كجزء من مُتطلّبات السنة التمهيديّة لدراسة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي

إعداد الطالب: **ياسر عبد الحسين داغر**

Yasseradagher@gmail.com

-باحث في التّاريخ الإسلامي الوسيط.

-خريج الجامعة اللبنانيّة – ماجستير.

-يدرس في جامعة بيروت العربية – تحضير أطروحة الدكتوراه، موسومة بعنوان :

" أثر العوامل السّياسيّة والعسكريّة والدّينيّة في تحوّل مصر من الحكم الفاطمي إلى الحكم الأيوبي "

-يعمل كمدرّس لمادة التّاريخ في المدارس الرسميّة التابعة لوزارة التربية اللبنانيّة.

إشراف

أ.د. علي حلاق
أستاذ التاريخ الإسلامي
كليّة الآداب - جامعة بيروت العربيّة
مُشرفًا رئيسًا

أ. د. محمد علي القوزي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كليّة الآداب - جامعة بيروت العربيّة
مُشرفًا مُشاركًا